سَــطـْـوةُ الـــعرُف الـقَبلي في الـثقـافةِ الإفـريـقـيّـة: فُحصٌ لأهمِّ الأسَاطيرِ الــتـأْسِيسيّة

L'influence de La Coutume Tribale dans La Culture Africaine: An examen des Principaux Mythes fondateurs

أ. وردة لـــواتـي: معهد الآداب و اللغات/المركز الجامعي بتمنراست

ملخص:

ترتبط القبيلة الأفريقيّة بالعُرف ارتباطًا وثيقًا لا مناص منه، فهو بمثابة القانون النافذ الذي يسيّر شؤونها وينظم أحوالها داخليًا وخارجيًا، ولهذا نجد أنّ كل فرد في القبيلة يخضع خضوعًا تامًا لبنوده وأحكامه، ولا يجرؤ بأي حال من الأحوال على مخالفته فهو يحتل مكانةً غايةً في الأهمية؛ كونه تنظيم اجتماعي فرضته ظروف معيّنة جعلت السّلطة القبليّة في أيدي فئة خاصة من الرّجال المميّزين من أبناء القبيلة .ولقد لعبت الأسطورة دورًا هاماً في ترسيخ هذه الأعراف وأضفت عليها صبغة القداسة ؛ومنحتها السّطوة والسّلطة .

الكلمات المفتاحية: عرف قبلي، سلطة، قبيلة إفريقية، أسطورة مُؤسّسة، قداسة

***Résumé* :**

Il est évident que la tribu africaine est liée étroitement par la coutume qui s'est transformée a des lois qui gèrent ses affaires intérieures et réglementent ses relations avec le monde extérieur. Ce qui oblige chaque individu de cette tribu de se soumettre à leur modalités et dispositions et n'ose pas en aucune façon à l'offenser. D'ailleurs, ces coutumes tribales occupent une place vitale dans l'organisation sociale dans la vie quotidienne de chaque membre. Car elles sont devenues des normes et des lois tacites qui régissent la vie de chaque membre à travers des générations jusqu'au nos jours grâce aux mythes qui formaient une plateforme solide sur laquelle s'enracinent ces coutumes et traditions qui ont été transformées a des lois divines et puissante

Mots Clés : Tribu Africaine, Coutume tribale, Mythes fondateurs, influence, loi divine.

مقدمة :

يُعتبر العُرف القبلي" la coutume tribale " بمثابة القانون النافذ؛ حيث يُسيّر أمور القبائل التي تحتكم جميعها إليه، وتعمل ببنوده وأحكامه، و لا يجوز لأي قبيلة أو أي فرد فيها مخالفته بأي حال من الأحوال. وقد جاء العّرف والتّقاليد والقوانين السّائدة في المجتمع الأفريقي نتاج تأثّرهم بوظيفة السّحر،في مرحلة ساد فيها هذا الأخير، و حيث كانت السّلطة السّياسية القبلية تتمركز في أيدي قلّة من الرّجال الأقوياء من أبناء القبيلة، والّذين يتّصفون بالحكمة والقوّة والذّكاء والمهارة، وهم لجان من شيوخ القبيلة المهرة الأقوياء.

يرى **جيمس فريزر**[1] أنّ المفاهيم القديمة الّتي تَعتبر الإنسان البدائيّ أكثر تحرّرًا، وانطلاقًا من غيره مفاهيم تجانب الصّحة، فإذا كان الإنسان في مجتمعات أكثر تحضرًا عبدًا لسيد ظاهر فإنّه في المجتمعات البدائية وخاصةً الأفريقية يُعتبر عبدًا للماضي ماثلاً في أرواح الأجداد (الأسلاف)، وآباء القبيلة الذين يَضربون حصارًا صارمًا على خطواته منذ المهد وحتى اللّحد يحدّ من حرياته وسلوكيّاته من خلال التّقاليد القديمة البالية، الّتي تُقيده بسلاسل من حديد[2].

إنّ القوانين القبلية قوانين غير مدوّنة " lois tacites " ، قام بصياغتها أجدادُ القبيلة الأوّلون، وخضعَ لها الفرد بدون أدنى تفكير أو نقد، فلا يمكن حتّى مجرّد التّفكير في الخروج عن هذه التّقاليد المتوارثة لأنّه أمر غاية في الخطورة، قد يُؤدي إلى الموت قتلاً؛ فعلى الفرد في القبيلة إطاعتها طاعة عمياء، ولا مجال للتّردد أو النّقد أو حتّى التّساؤل حول الهدف أو المغزى من العمل بهذا القانون أو العُرف.

بناءاً على ما سبق، فإن هذا المقال سيحاول الإجابة على تساؤل مركزي مفاده: **ما هي المكانة الحقيقيّة التي تحتلّها الأعراف القبلية في الثقافة الإفريقية ؟ وما مدى ارتباط الفرد والمجتمع بها ؟ وما هي أهمّ هذه الأعراف السّائدة و الأساطير التي أسّست لها؟**

أولاً- مكانة العرف في القبيلة الإفريقية:

تحتل القوانين العُرفية مكانةً غايةً في الأهمية لدى المجتمعات القبلية بصفة عامة، فهي ليست حكرًا على قبلية أو أخرى، خاصةً أنّه لا توجد عشيرة أو مكون قبلي يعيش بمفرده (أي

بمعزل عن العشائر والقبائل الأخرى) وهذا يعود طبعًا للتّقارب الكبير في ظروف الحياة والمعيشة والبيئة، وكذلك نتاجُ الاحتكاك الدّائم بين تلك العشائر والقبائل، الّتي دفعتها متطلبات العيش - كالماء والكلأ – لذلك، بالإضافة إلى وجود تقارب وشَبه كبيرين في العادات والتّقاليد بين مختلف القبائل الأفريقيّة.

ويرى بعض الباحثين بأنّ القانون القبلي والقضاء العُرفي عبارة عن تنظيم اجتماعي فرضته ظروف سياسية وإدارية معينة في ظل غياب سلطة تنفيذيّة رادعة تضمن للنّاس الحدّ الأدنى من العدالة الاجتماعيّة، ومما يجدر الإشارة إليه أنّ التّنظيم العُرفي نشأ نتيجةً لهذه المقدّمات وهذا التّنظيم هو عبارة عن قوانين نقليّة متوارثة أبًا عن جدّ.

وتختلف الأسَاطير الأفريقيّة والخرافات الّتي تتعرض للقوانين والعادات والأعراف، و نجد منها أسطورةُ **المَلك المُبتكر**" Le Roi Inventeur " [3] لدى قبائل بوشونغو Bushoungo بالكونغو، - و الّتي لا تهمل الإشارة إلى السّلف الأوائل الّذين كانوا السّبب في وجود القبائل والأعراف طبعا- فهي تذهب إلى أنّ البشَر الأوائل (السّلف الأوائل) لم يكونا سوى رجل مُسنٌّ وامـرأةٌ لا وَلَدَ لهما، لكنّ أبوابَ السّماء والرّحمة فُتحت لهما عن الخَالق **بومازي**[4]Bomazi بلونه الأبيض الّذي يَرمزُ للطّهارة والفرح[5]، كيف لا وهو الخالق الأعظم الّذي يَحمل الفرحَ لخلقه جميعا، فقد بَشّر الزّوجين بميلاد طفل لهما، لكنّهما استهجنا ما سمعاه (وهنا تشابه مع قصّة النّبي زكرياء وزوجته عندما بشرهما الخالق بميلاد ابن لهما، أين ضحكت الزّوجة واستغربت الأمرَ لكبر سنها).

لكن لا شيء يَعلُو فوق مَشيئَة الخالق الأعظم، فقد رزقا بطفلة اقترن بها الخالق الأعظم بعدما كبرت، وأنجبا خمسة أطفال ذكور صاروا فيما بعد زعماء قبائل مختلفة، والعدد خمسة يرمزُ لألوهة السّماء الكبرى[6]، فهو يمثّل كلّ ماله علاقة بالمُؤلّه والسّماوي، كما يُعبّر عن الجسم البشري كذلك، فقد قدم **هيلويفارد برامين** على ارتباطها بالجسم البشري من خلال الحواس الخمسة، والنّهايات الخمسة للجسم. فكان العدد خمسة العدد المثالي الّذي يجمع بين الألُوهي والبَشري، كَون هؤلاء الذّكور نتاج اقتران بين الألوهي (الإله بومازي) والبشري (ابنة العجوز وزوجته).

كما أنّ ميلاد توأم من هذا الاقتران المقدّس يَرمزُ للتّناسق والتّكامل، وقد ارتبطت البنوّة غالبًا بالذّكورة: ابن = ذَكر، فمن خلال "صورة الابن تَتَمظهرُ توجهات السّيطرة على الزّمن من خلال رغبة الأهل في استمرارية النّسل، ومن وجهة نظر تطوّرية يُعتبر كل عنصر ثانوي ابنًا للذي يَسبقه، فالابن هو تكرار للأهل في الزّمن أكثر من كونه مجرد مضاعفة إحصائية ومن المؤكد حسب نظرية رانك، أنه يوجد في كثير من الأساطير مضاعفة أبوية: مضاعفة الأب الحقيقي بالأب الأسطوري، حيث يكون الأول من أصل متواضع والآخر من أصل إلهي نبيل"[7].

لقد اقترن **وتو** Woto بثلاث زوجات، وغالبًا ما نجد أنّ هذا العدد يتكرّر في الأساطير والخرافات الأفريقيّة ، وهذا التّكرار مرتبط بالزّوجات، ما يدلّ على رمزية غايةً في الدّلالة والمعنى فالزّواج تكامل وتناسق بين الطّرفين، وعندما يكون بين ثلاث زوجات وزوج فهذا يدل على ذروة التّكامل والتّناسق.

وتأتي جرأة ابن أخ **مولو** على زوجات هذا الأخير ربما عن عُرف منتشر بين أفراد قبيلتهما، حيث لا يرى في فعلته هذه الشّيء المُشين الّذي تردعه الأعراف، والدّليل على ذلك أنّ **مولو** صَفحَ عن ابن أخيه بعدما توسّل إليه، ثم قامَ هو كذلك بنفس الفعلَة الّتي قام بها ابن أخيه، فهناك بعض القبائل الأفريقيّة الّتي تقرّ بالاختلاط الجنسي، ولا ترى فيه عيبًا أو إثمًا، كما تقرّ بعض القبائل بتعدّد الأزواج بالنّسبة للمرأة، وقد كان مُتعارف عليه لديها قبل تعدد الزّوجات فيما بعد.

لقد كان صاحب الذّكاء والدّهاء، والمُمسكُ بناصية القوّة السّحرية أَولى من غيره في الحُكم والزّعامة، ولأنّ **وتو** كان يَتمتَع بهذه الصّفات فقد نصّبه الأقزام الذين ظهروا من تَفتّح أشجار الغابة زعيمًا عليهم وعلى قبيلتهم، وفي هذا إشارة إلى مصدر خَلق الأقزام حيث تَنظر إليهم القبائل ذات القامة الطّويلة على أنّهم خَلق غير عادي، تسببت في ظهورهم الأعمال السّحرية الخارقة.

ويعتبر الزّعيم **وتو** بالنسبة لـ ShambaBoloNgongo زعيم القبيلة الجديد- السّلف - وقد نحى هذا الزّعيم منحى جديدا نسب إليه، حيث عرف عنه رغبته الشّديدة في السّفر و التّرحال

فهو يسعى من خلاله إلى الإلمام بالمعرفة والحكمة، وبمجرد عودته لقبيلته باشر تعليم أفراد قبيلته حرفًا ما كانوا ليعرفوها ويمارسوها لولا سفر زعيمهم، كما أدخل تعديلات في المعاملات بين أفراد القبيلة وسنّ قوانين جديدة، منها حضرُ استخدام القوس والنّشاب في الحروب رأفةً منه بأبناء الإله -على حد تعبيره -

كما ثبت عنه سنّه لقانون عُرفي يؤسس لنصرة الحليف وأبناء القبيلة، الذين يتعرضون للظّلم أو الاعتداء، حيث يعلن الحرب بدون أي تردد أو تخاذل، وقد منع قتل العدو إلا في حالة مقاومته، وجرّم قتل النّساء والأطفال أو إلحاق الأذى بهم في حالة الحرب، بالإضافة إلى قوانين عرفية أخرى تتعلق بعضها بالقضايا والمحاكمات وشهادة الزور... إلخ.

وكان يلجأ إلى الرّوايات من أجل فضّ النّزاعات القائمة بين أفراد القبيلة ، وهذه المهمة أيضاً(فض النّزاعات) من مهام زعيم القبيلة، وأحيانًا نجده منوطاً برجل آخر يتسم بالحكمة والمعرفة. وبهذا يصبح كل ما دعى إليه الزّعيم عُرفا وجب على كل فرد من أفراد القبيلة الاحتكام إليه، واتباعه وعدم الإخلال به مهما كان وإلاّ كلفه ذلك حياته.

وعلى العموم تبقى الأعراف عند القبائل الأفريقية هي أساس الحياة داخل هذا المجتمع البدائي، ويعود ذلك إلى نمط حياتهم، الّتي قد تتسم في غالب الأحيان بالتّنقل والتّرحال ما يجعلهم يلجئون إلى أعرافهم وعادتهم، حيث أنّ مجال العرف يتّسع لكي يشمل كل مناحي الحياة البدائيّة، الّتي عُرفت بها هذه القبائل. وقد حافظ هذا المجتمع القبلي على تركيبته وأعرافه نتيجة لعوامل عدة لا يتسع المجال لسردها، ولهذا فقد دأب أفراد القبيلة على تنظيم أعرافهم حسب تنظيمهم القبلي.

فنجد أنّ القبيلة تخضع لقوانين صارمة نظمتها التّقاليد والأعراف، ويلجأ أفراد القبيلة في حال وقوع خلافات بينهم إلى محاكم قبلية خاصة لها قوانينها المتوارثة عن الأسلاف، فكل عُرف رادع يهدف إلى حفظ أهم مقومات القبيلة، وبالتالي علو مكانة القاضي في القبيلة ليس بشيء عجيب، ولم يأت محض صدفه، فهو يتمتع بالثّقة العالية الّتي لا تتزعزع كون أحكامه نابعة من

أعراف العشائر وتقاليدها. وتتراوح الأحكام التي يُصدرها قُضاة القبيلة بين العقوبات المادية: كالتّعويضات، أو البدنيّة كالضّرب أو القتل، وعقوبات معنويّة كالإبعاد عن القبيلة.

ثانياً ـ عادات وأعراف القبيلة الإفريقية:

تختلف العادات والأعراف القبليّة في المجتمع الأفريقي من قبيلة إلى أخرى وحتّى من عشيرة إلى أخرى، لكن هناك بعض العادات والأعراف ثبتَ وجودها في معظم القبائل والعشائر، أصبحت جزءً لا يتجزأ من هويتها ومنها:

أ- المثارات (الأخذ بالثأر):

إنّ الثّأر " la Revenge " هو"أخذُ الرجل وقَرابته بالثّأر لقريبه، أو جاره، أو أخيه، أو ضيفه،أو جيرته"[8] أو أي فرد من حلفه، " ويكون المثار بسفك الدّم أو أخذ مقابل مال يُدفع للمعتدي عليه "[9] وهذه الأخيرة عقوبة عاجلة، وقد سُمي بالمثار لأنّ فعل الثّأر يُشبه ثوران النّار والمتفجّرات. وللمثارات أنواع عدّة منها:

أ-1 مثار العاني:أي القريب الذي يكون من جهة الأمّ كما هو الحال بالنّسبة للخال وأبنائه والخالات وأبنائهنّ، فالفرد من قبيلة ما إذا اعتدى أحدهم من قبيلته على أفراد خؤولته فلابد من أخذ الثّأر لهم، من خلال دم يُنثر نُصرة لهذه الخؤولة، أو مال يُعطى كرد اعتبار للمجني عليه[10].

أ-2 مثار الجار: ويكون في حال الاعتداء على الجار في المسكن أو في القبيلة، فلابدّ من الأخذ بالثّأر من خلال سفك الدّم بيد جاره.

أ-3 مثار الحليف: ويظهر من خلال استجارة قبيلة بقبيلة حليفة، أي بينهما حلف معين. وتبقى المثارات عديدة ومتعدّدة ولا يمكن حصرها في صفحات.

ب- الجيرة:

وتكون بتوفير الأمن والحماية من القبيلة المجوّرة للجاني وقرابته، من خلال تهديد وتوبيخ المجني عليه وقرابته، فتقوم قرابة الجاني بطلب الجيرة والمنع من قبيلة أخرى تربطها بقبيلة الجاني، وقبيلة المجني عليه قرابة محدّدة[11]، وتكون لهذه الجيرة مدة محدّدة حسب الجناية

وقد تكون المدة مفتوحة، وإذ اعتدت قرابة المجني عليه على أحد من قرابة الجاني، فإنّ القبيلة المجوّرة تقوم بأخذ المثار من قرابة المجني عليه، ومن أي فرد من أفرادها لاعتدائها على جيرتها، ثم تقوم بطلب حُكم قبلي يرد اعتبارها.

ج- الإرث في العُرف القبلي:

لم يكن في البلاد الأفريقيّة قديمًا (أي أفريقيا البدائيّة) كما هو معروف نظام سياسي بمعنى الكلمة، وإنّما كان يَسودُ النّظام القبلي والأعراف القبليّة الّتي بموجبها يُقسم الإرثُ " l'héritage "، كون الأفارقة كانوا يعيشون في بيئة غاية في الصّعوبة والتّعقيد، ما جَعلَ الحروب والمنازعات تتفشى في المجتمع بطريقة رهيبة. فكانت بذلك الغنائم أساس معيشتهم وإرثهم، كما كانت معيشتهم تعتمد على الصّيد، ولهذا فإنّ التّركات والإرث كانت توزّع وفق عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم.

ولمّا كان المجتمع الإفريقي القبلي له أعرافه وتقاليده، التي ورثها والتي يَسير بموجبها ولمّا كانت القوّة في العُرف القبلي تكاد تكون الوسيلة الوحيدة، التي تضمن سلامة القبيلة وساكنيها من الاعتداءات والإغارات، فإنّه من أجل تحقيق ذلك يتوجب كثرة المحاربين بقوّتهم وقدرتهم على التّصدي للأعداء، والذّود عن حمى القبيلة، وبحسب العُرف والعادات القبليّة الأفريقيّة يكون الحقّ في الإرث للرّجال من المحاربين، ويُراعَى- طبعا- في ذلك النسب (أي درجة القرابة ومقدار قربها من المتوفّي، بنوّة أو أبوّة).

أمّا المرأة حسب العُرف القبلي، فهي ضمن التّركة وهي في العديد من القبائل الأفريقيّة لا تَرث بل تُورث، خاصةً إذا كانت ليس لها ولد، فيقوم الأحق بالميراث من الأشخاص الأقرب للمتوفي بأخذ كل شيء بما فيهم المرأة، فهي تُعتبر جزءً من التّركة[12]. لكن هذا ليس سائدًا في كل القبائل الأفريقيّة، بل هو أمر يتفاوت من قبيلة لأخرى، فمنها من تنصفها حقّها ومنها من تحرمها إيّاه. وقد ذكرت أسطورة **جبال كليمنجارو**[13]؛والتي مفادها أنّ الإله خلق هذه الجبال ليرتاح عليها ويراقب خلقه، ولأجل تعمير الأرض اختار ثلاثة من أبنائه (**كيكويو، وكامبا، وماساي**) السّلف الأوّل، وأعطى لكلّ واحد ما اختاره من سلاح يُعينه على الحياة وكلّف كلّ واحد بمهمة، ومنح الإله كيكويو بقعة من الأرض وامرأة غاية في الجمال وطلب منه أن يتزوّجها ويعمّر الأرض، لينجبا تسع بنات وحُرما الولد ولكي يحصلا عليه ذهبا لسفح

الجبل حيث الإله يراقب من فوق وتضرعا له، وقدما له القرابين ليجدا عند عودتهما تسعة فتية، فاقترن الفتية بالبنات لتظهر قبائل عديدة تحتل المرأة فيها مكانة عالية بحيث يمكنها أن تتزوج بأكثر من رجل، وسميت القبائل بأسمائهن، كما أنّه "عندما توفي الوالدان تم تقسيم التّركة بين البنات بالتّساوي "[14]، ومعنى هذا أنّه قد ترث المرأة لدى بعض القبائل.

كما شاع بين القبائل الأفريقيّة "الزّواج بالميراث"[15]، فإذا ما توفي الرجل وترك زوجةً أو عدّة زوجات، ورث أخوه أرملته، وفي حال ما لم يكن للزوج أخ ورثها أقرب الرّجال إلى الزّوج نسبًا، ويُرجع الدّارسون هذا الفعل إلى الرّغبة في المحافظة على أموال المتوفي ضمن الأسرة ومنع ذهابها إلى الغير، كما يُهدف من خلاله إلى حماية اسم المتوفي وبقاء نسله مستمرًا، لأنهم يقومون بنسب الأولاد من أخ المتوفي إلى هذا الأخير.

ثالثاً ـ الوشم لدى بعض قبائل أفريقيا:

إنّ أغلب القبائل الأفريقيّة ـ وخاصة البدائيّة منها ـ منغلقة على نفسها نتيجة عوامل (ليست هي مجال بحثنا)، فأفرادها يتحدّون قسوة الطّبيعة وجبروت الحيوانات المفترسة التي لا ترحم كما أنّ لهذه القبائل طقوسها الخاصّة المختلفة ،والتي تُمارس في أوقاتها ومناسباتها التي تستدعيها. هذه الطّقوس القبليّة تشكّل وتنظّم وتقنّن حياة الفرد والجماعة، وترسخ مورث التقاليد الأفريقيّة.

ومن هذه التقاليد التي تَميزَ بها الفرد الأفريقي في قبيلته: الوشم (علامات ونقوش على جلده)، فالإنسان البدائي الأفريقي حوّل عدّة معايير وقوانين وسلوكيات إلى قيود تكبّله وتميّز انتماءه، وأجبر ذاته وغيره على احترامها والالتزام بها، فتحولت بذلك من سلوكيات عاديّة إلى قوانين، وأعراف وجب اتّباعها والتّسليم بها. فقد ألزم نفسه بعمليات الوشم (جرح الجسم وتشريح الجلد).

هناك أساطير وخرافات تروي أصل هذا العُرف، وجذوره في المجتمع الأفريقي ومصادره الأصلية، ومنها ما يذكر عن **جمعية بورو Poro** المتواجدة بغينيا والبلدان المجاورة

لها، والتي تقول أنّ المجاعة في زمن قديم عمّت وانتشرت بشكل مخيف، فقلّت موارد الرّزق، وتضاءلت، وفي وقت كانت النّسوة المتحكّم الرّئيس بزمام الأمور في القبيلة، احتكرن هذه البضائع ورفعن الأسعار، فلم يعد بإمكان الرّجال اقتناءها، وكرد فعل على هذه التصرّفات المرفوضة جملة وتفصيلاً، قرر الرّجال قلب الموازين واسترجاع مكانتهم في القبيلة - بعد اجتماع سري - كان تجسيد هذا القرار من خلال نحت أقنعة بشريّة من قطع الخشب[16]، ومُثبتُ عليها قرون حيوانيّة و "كل نحت هو تمثيل مادّي ورمزي لشخصيّة، وجزءً لا يتجزأ من الكّون لكن فوق كل شيء كل نحت يناسب فترة من وعي الفرد، وتعبير عن حياته الداخلية "[17]. وكان اختيارهم للقرون محاكاة لحيوانات أفريقيا، خاصة الثّور الذي يرمز للألوهة والقوّة والخصب و"القرن رمز الطاقة وشعاع مرئي للقوة الخالقة "[18].

لقد كانت هذه الأقنعة في بداية الأمر مجرد وسيلة ابتكرها الرجل الأفريقي؛ ليعيد هيبته ومكانته عند النساء وبين أفراد القبيلة في فترة خاصة وفي ظروف معيّنة، حيث ارتدوها وبثوا الرّعب في نفوس النّساء، وفرضوا وجودهم، خاصةً وقد أحدثوا إلى جانب هذا الرعب من الأقنعة جروحا، وخدوشا على أجسام المتواجدين في السوق الذين هجموا عليهم مدعين أن هذه الخدوش والجروح تمثّل لهم عنصر حماية من الأرواح الشّريرة.

و من حينها أصبحت هذه الأقنعة ضمن تقاليد القبائل الأفريقيّة، وعرفًا من أعرافها التي لا يمكن التّخلي عنها؛ خاصة وهي إرث من الأسلاف الذين لا يخالف لهم عُرف أو تقليد، حيث باتت احتفالاتهم لا تخلو من ارتداء هذه الأقنعة على اختلاف أشكالها، وألوانها وتعابيرها وما عزّز هذا الفعل كون زعيم الجمعية السرية المدعو **غبني** Gbeni يرتدي قناعًا، ولا يظهر إلا في مناسبات معيّنة،[19] وهذا ما جعل هذه الأقنعة ترمز لأرواح الأسلاف وسلطتهم على أفراد القبيلة.

وتوجد روايات كثيرة تثبت انتشار هذا العُرف بين القبائل الأفريقيّة، ومعظمها يُكرّس أحقيّة الرّجال بارتداء الأقنعة على النّساء، خاصة وأنّ الرّجال أكثر جرأة وشجاعة من النّساء وقد جاء هذا الطّرح واضحاً في دراسات **جيوفري بارينذر** حول الأسلاف والأعراف.

أمّا فيما يخصُ الجُروح التي كانوا يحدثونها في أجسامهم فقد أخذت بعداً آخر، حيث أصبحت عملية تشريح الجسم - إن صح التعبير- واجبًا وعرفًا لا مناص من اتباعه فكل فرد ينتمي إلى القبيلة لابد له من القيام بهذه العملية التي ترسخ انتماءه إلى القبيلة أوتنفيه.

إنّ عمليّة الخدش أو الوشم تعزى لدى الباحثين بالأساس إلى طريقة عيش الإنسان الأفريقي القاسيّة والبدائيّة، فكونه على احتكاك دائم بالحيوانات البريّة المتوحشة، التي تترك آثارًا وعلامات على جسمه، هذا ما حدى به إلى البحث عن طرق مثلى تمكّنه من ستر تلك العيوب والتّشوهات التي لا مفرّ منها، حيث أصبحت غائرة و راسخة في جلده وجسمه، فلم يجد أمامه من بد سوى تجميل تلك النّدوب والجروح عن طريق التّحكم فيها وجعلها وشمًا خاصًا ومنظمًا.

و يُعتبر جسد الإنسان الأفريقي من أهم رموزه وعلاماته، التي يتمّ التّعرف بها على شخصيته وطبيعته، وعواطفه، وميولاته، فهو يحاول أن يُبرز جسمه في أبهى ما يكون وبالطريقة التي ترضيه وتريحه، ولأن الإنسان الأفريقي قلّما يرتدي اللّباس فإنّه يجعل لباسه الذي يتباهى به جلده. وإذا كان قد استعمل فراء الحيوانات للتنكر أو لتقليد الحيوان الطوطمي للقبيلة، أو من أجل بث الرعب في نفوس أعدائه، فإنّه استعمل الخدوش والوشم ليشمل كل ما تقدم ذكره.

إضافةً إلى ارتباط الوشم في بداية الأمر بالديانات القديمة، حيث كانت تعبر كل ديانة بوشم معين يميزها عن غيرها ويرمز لآلهتها، كما كان وسيلة من الوسائل المتّبعة في محاربة الشّيطان، والسّيطرة على الأرواح الشّريرة، وإبطال السّحر الذي يُؤذي الإنسان الأفريقي. ويبقى لكل قبيلة تعبيرها الخاص بها، فمنها ما يُعتبر تمييزًا خاصًا للقبيلة، حيث تعرف من خلاله فهو بمثابة العلامة أو الرّمز الذي يشير إلى قبيلة بعينها.

فالوشم ظاهرة ضاربة في القدم في كل المجتمعات البشرية، وقد عرفت في أفريقيا بشكل ملفت للانتباه، فقد كان بمثابة تعويذة ضد الأرواح الشّريرة، ووقاية من أذى السّحر، وقد كانت القبائل الأفريقيّة تتخذ من بعض الحيوانات التي تعيش في جوارها حاميًا وأمانًا لها،كيف لا وهي تتخذ من أعضاء أجسامها طوطما تضعه على مداخل البيوت، أو يرسمه الفرد وشما على جسده[20]، ولهذا كانت عملية الوشم عملية غاية في الدقّة، ويتبيّن ذلك من خلال الطقوس المتّبعة في هذه العملية " ويا لها من عملية مؤلمة، فعلى كل أجزاء الجسم من الجبين إلى الوجنتين و العنق

والذقن والبطن و العجز والفخذين مع الساقين تُشرط الرسومات بسكين حادة أو موس ثم تدلك الجروح بالفحم و بمادة نباتية حتى تنتفخ وتلمع آخر الأمر ".[21]

أما الخدش " le grattement " فقد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بطقس العبور " Rite de passage "[22] الذي تُمارسه القبائل الأفريقيّة للذّكور الذين هم على وشك البلوغ، كما ارتبط بالانتماء القبلي، حيث اعتبر تدفق الدّماء من جلد الإنسان الأفريقي ذو طاقة روحيّة عظيمة يكتسبها الفرد، ولهذا تجدهم يُقدمون على شرب دماء القرابين؛ كما هو الحال لدى قبيلة الماساي بتنزانيا، الذين يعيشون على دماء ولبن الأبقار.

وللوشم دوافع جمالية واجتماعية " فالتزيين هو تخط وسبق للجمال القائم في الطبيعة وابتداع لصور أخرى منه، وقد بدأ الإنسان يمارس التزيين على ذاته المادية، التي لم يكن يملك سواها فعكف عليها فَصْداً ووشماً وكياً، فنقش بدنه بأشكال هندسة ورمزية مختلفة، حتى إذا بدأ ينفصل عن ذاته ويضيف إليها عناصر خارجية بدأ يتجه إلى تزيينها هي كذلك، فاحتفل بملابسه وحليه "[23]. فتكون بهذا عملية الوشم والخدش عمليّة تزينيّة " opération décorative " بالدرجة الأولى غرضها جمالي مثلها مثل القلائد والأساور والأقراط... التي يتزين بها أفراد القبيلة الأفريقية، وهي حمائل أي "كل ما يحمل ويعلق أو يوضع على شيء لحمايته "[24].

و بالتّالي يكون الخدش أو الوشم عامل حماية من الأذى " un facteur de protection "، وسببًا لمنح القوّة والخصب، وكل ما من شأنه جلب الرّاحة النّفسية للفرد الأفريقي، والملاحظ أن عملية الخدش تمارس عادة في مرحلة مبكرة. كما اعتبر الخدش عملية تداوي وعلاج " opération de guérison " يقدمه سيد القبيلة أو طبيب القبيلة لأفراد قبيلته، لقناعتهم بفوائده العلاجية بعيدة المدى، ويقول **ميس بلاكمان**: "أنّه قد يكون للوشم فعالية في القضاء على وجع الرأس، وسعار الأسنان، والضعف البصري ومس الجن والأرواح "[25].

ولهذا يُعتبر الخدش والوشم لدى المجتمعات البدائيّة الأفريقيّة ممارسة سحرية " une pratique de magie " في الجسم، وهو بهذا يكون قد اكتسب طبيعية سحريّة روحانيّة عَقدية، حيث ارتبطت هذه الممارسة بمعتقد ديني، وهو الاعتقاد الرّاسخ بعالم الأرواح واسترضاء القوى الغيبيّة المتعاليّة، وهذا ما يثبته ممارسة الخدش في "طقوس احتفالية روحانية تضفي قدسية على

القبيلة، فهم يعيشـون مـن خلالها لحظات ينفصلون فيها عن وجودهم الدّنيوي ليلتحقوا بالوجود المقدّس، يمنحهم القوى السّحرية مقابل أن يمنح الإنسان بدوره الألم "[26]، فهذه العملية هي ظاهرة اجتماعية في القبيلة الأفريقيّة تقوم بإنماء الشعور الاجتماعي للقبلية والانتماء " le tatouage comme développeur de sens d'appartenance social" .

يُعد سيّدُ القبيلة المسؤول المباشر عن ازدهار القبيلـة، وحمايتها في حال تعرضها للأمراض، والكوارث، لذلك عادة ما تكون له علاقة وطيدة بساحر القبيلة وبأسياد النّار" الذين يكونون شخصيات ذوات عاهات أو ساق واحدة... ولكون سيد النّار يتحمل الألم ويقوم بأعمال مناقضة لذلك، فإنّه غالبا ما يكون ممتلكا القدرة على الشفاء ودمل الجراح وإعادة التشكيل بالنّار ."[27]

إنّ الخدش أو الوشم يتمّ غالب الأحيان باستعمال الكي بالنّار، ناهيك عن استعمال الآلات الحادة الأخرى، لكن تبقى النّار محط افتتان الإنسان " فالنار هي أكثر الأشياء حيوية وهي من بين كل الظواهر، الظاهرة الوحيدة التي بإمكانها أن تَقبل بنفس الوضوح القيمتين المتضادتين: الخير والشر"[28].

وتبقى أهم الأسباب التي تجعل الفرد الأفريقي يميل إلى الوشم والخدش هو الهروب من السّحر، لأنّهم يتصورون أنّ السّاحر بإمكانه إلحاق الأذى به عن طريق سحر المحاكاة (التشاكلي)[29]، حيث يعتقد أنّه بإمكان السّاحر تعذيب الشّخص المستهدف أو حتى قتله من خلال قوّته الرّوحية، والوشم في معتقدهم تغيير في الجسم يجعلهم في حماية دائمة، لأنّهم سيختلفون في ملامحهم عن الأصل، فهذه الخدوش والندوب بمثابة تعاويذ ضد السّحر.

الخاتمة :

من خلال كل ما تقدم يتبيّن لنا أنّ الإنسـان الإفريقي أكثرُ ارتباطًا بأعراف قبيلته التي لا يمكنه أن يحيد عنها أو يرفضها بأي شكل من الأشكال ،فهي ترسم حاضره ومستقبله وتمتد لتتجذر في ماضيه ، فهذه الأعراف و القوانين هي متوارثة جيلاً بعد جيل صاغها السّلف وورثها الخلف، وخضع لها خضوعًا تاما لا رجعة فيه.

لقد أســـهمت الأســـطورة الإفريقية في توثيق هذه الأعراف و القوانين؛ من خلال تداولها عبر الأجيال، حيث رســـخت هذه العادات و الأعراف وروجت لها بطريقة جعلتها تخالط المقدس لتأخذ شـــيئاً من خصـــائصـــه .كما ثبت اختلاف العادات والأعراف القبلية في المجتمع الأفريقي من قبيلة إلى أخرى من حيث التفاصـــيل الدقيقة؛ فهي تصـــطبغ بحســـب الطّبيعة المميزة لكلّ منها ، و مع هذا فالرّاجح اشتراكها في المنحى العام لهذه الأعراف .

لقد تجذرت عادة الوشـــم و التّشـــليط وتشـــريح الجلد و تزينه لدى معظم القبائل الأفريقيّة؛ فهي بمثابة العُرف الذي لا مناص منه ،فهو يحدد انتماء الفرد لقبيلته منعدمه " le tatouage comme déterminant identitaire "؛ فلكل قبيلة رسومات معينة تطبعها على جلد أفرادها ؛تجعلهم يتميزون عماّ سواهم . كما اعتبر الوشم تعويذة ضدّ الأرواح الشّريرة ووقاية من أذى السّحر ، في حين أعتُبر الخدش مرتبطًا بطقس العبور المتعلق بالذكور الذين هم على وشك البلوغ ،وكلاهما (الخدش و الوشم) عامل منح للقوة و الخصب ،وجلب للراحة النفسية للإنســان الأفريقي ، وهما يكســبانه طبيعة ســحريّة روحانيّة عقدية ، وهما بمثابة تعاويذ ضــد السّحر.

و تبقى الأعراف و العادات في المجتمع الأفريقي لا حصر لها سواء من ناحية الكم أو المعنى ، خاصـــة و أنّ أفريقيا ما وراء الصـــحراء تعدّ من أغنى البلدان من حيث التّنوع القبلي الذي يُفرز تعددًا في الأعراف التي تتميز بشـدّتها و صـرامتها وسـطوتها على الإنسـان الأفريقي الذي يتميّز بالعفوية و البساطة التي قد تصل لحد السذاجة أحيانًا . وليست الأعراف و العادات و حدها التي تمارس ســـطوتها على الإنســـان الأفريقي بل هناك عوامل أخرى كالأسلاف ... و لذا يجد الإنسان الإفريقي نفسه محاصرًا ثقافياً و دينياً من كل الجهات تقريباً .

<u>الهوامش:</u>

[1] - **جيمس جورج فريزر" James George Frazer ":** عالم انثروبولوجيا اسكتلندي شهير ،ولد في 01 جانفي سنة 1854م و توفى في جلاسجو بإسكتلندا في 07 ماي سنة 1941م. ألَّف كتابه المشهور و الضخم " **الغصن الذهبي" " Golden Bough** " عام 1890 م وهو عبارة عن دراسة في السحر و الدين ومن أهم الكتب التي تم تأليفها في مجال الميثولوجيا و علم مقارنة الأديان، حيث تعرض فريزر في هذه الموسوعة الهائلة إلي العديد من التيمات الميثولوجية المعروفة في الأديان و المعتقدات المختلفة في تاريخ البشر و قام بوضعها في إطار مقارن موضحا مدى التشابه و ربما التطابق بين ممارسات هذه المعتقدات القديمة البدائية و طقوس الديانات الحديثة.. من كتبه المهمة الأخرى : " الطوطمية و الزواج بغير ذوي القربى" **Totemism and Exogamy** " " و الطوطمية "**Totemism** " .

[2] -ينظر محمد عبد الحميد محمد أبوزيد، الإنسان والأساطير والسحر، دار العالم الثالث ج1، 2005، ص 57.

[3] -جيوفري بارينذر، الأساطير الأفريقية ، تر (حسن هيثم الطريحي)، دار نينوى سورية ،2007، ص157.

[4] -المصدر نفسه، ص157.

[5] -ينظر جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا رموزها أنساقها أساطيرها، تر (مصباح الصمد) مجد المؤسسة الجامعية للدراسات، لبنان، ط3، 2006،ص428.

[6] -ينظر المرجع السابق، ص454.

[7] -المرجع نفسه، ص284،283.

[8] -سعيد بن علي بن وهف القحطاني، مجلة العادات والأعراف القبلية المخالفة للشريعة الإسلامية، 1433 هـ،ص7.

[9] -المرجع نفسه ، ص7.

[10] - ينظر المرجع السابق ،ص8،7.

[11] -ينظر المرجع نفسه، ص12.

[12] -ينظر إبراهيم محمد علي، مجلة كلية العلوم الإسلامية، مج6، العدد 12، 1433 هـ - 2012.

[13] - **جبل كيليمانجارو"kilimanjaro "** ويسمى أيضا "**شيطان البرد**" : هو الجبل الأكثر ارتفاعاً في أفريقيا .يقع في شمال شرق تنزانيا و يتألف ثلثاه من مخاريط بركانية هي "**كيبو** " أعلى القمم و"**ماوينسي**" و"**شيرا**". تبلغ أعلى قمة للجبل 5,895 متراً عن سطح البحر .ويعتبر الجبل أقرب نقطة تغطيها الثلوج قريبة من خط الاستواء .يعتبر جبل كليمنجارو أحد المواقع السياحية الهامة في تنزانيا و يضم عدة محميات وحدائق وطنية أهما منتزه كليمنجارو الوطني المسجل ضمن قائمة اليونسكو لمواقع التراث الطبيعي العالمي.

[14] -جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا رموزها أنساقها أساطيرها، تر (مصباح الصمد)، ص154.

[15] -جمعة محمد محمود ،النظم الاجتماعية عند قدماء العرب الساميين، القاهرة 1949،ص59.

[16] - جيوفري بارينذر، الأساطير الأفريقية ، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص138،137.

[17]-فيليب سيرنج، الرموز في الفن - الأديان - الحياة ، تر (عبد الهادي عباس) دار دمشق، سوريا، ط2 ،2009،ص419،418.

[18] -لوك بنوا، إشارات ،رموز وأساطير، تر (فايز كم نقش)، دار عويدات للنشر والطباعة، لبنان، ط1، 2001،ص46.

[19] -ينظر جيوفري بارينذر، الأساطير الأفريقية، تر (حسن هيثم الطريحي)، ص138.

[20] -ينظر محمد محي الدين صابر، التغيير الحضاري في مجتمع أفريقي، دراسة انتروبولوجية لقبائل الأزندي (نيام نيام) ومشروعات توطينها، دار عزة للنشر ،السودان ،ص310.

[21] -فاروق عبد الجواد شويقة وآخرون، الموسوعة الأفريقية الأنثروبولوجيا، دار مجدي للطباعة والنشر، القاهرة، مج1997،4 ص214.

[22] - **طقس العبور" rite de passage "**: هو أحد الطقوس التي تجري بمناسبة العبور من حالة سابقة أو وضع سابق إلى حالة لاحقة ووضع جديد، مثل تغير الوضع الاجتماعي أو تغيير جنس الفرد (التحول الجنسي) وتعتبر المناسبة الإجتماعية الأكثر شيوعا هي البلوغ (أي الإنضمام لمجموعة البالغين). ومن هذه المناسبات أيضا الولادة أو بلوغ سن اليأس. و عادة ما يتحقق طقس العبور من خلال طقوس معينة وإحتفاليات خاصة بالمناسبة. و يعتبر طقوس العبور آلية إبتكرتها القبائل البدائية خاصة الإفريقية تُمكّن من ربط الفرد إلى جماعة معينة، كما يمكن أن يشكل نظام حياة مستقبلي للفرد وفق خطوات دقيقة، بالشكل الذي يوصل الفرد للأمان النفسي والطمأنينة.

[23] -محمد محي الدين صابر،التغيير الحضاري في مجتمع أفريقي ، دراسة انثروبولوجية لقبائل الأزندي (نيام نيام) ومشروعات توطينها، ص310.

[24] -المرجع نفسه، ص309.

[25] -المرجع السابق، ص310.

[26] المرجع نفسه، ص115.

[27] -جوزيف كيزيزيو، تاريخ أفريقيا السوداء، تر (يوسف شلب الشام)، دار علاء الدين سوريا،ص505.

[28] - جيلبير دوران ،الأنثروبولوجيا رموزها أنساقها أساطيرها ، تر (مصباح الصمد) ص286.

[29] - **سحر المحاكاة أو السحر (التشاكلي):** يقوم على مبدأ التشابه أي «الشبيه ينتج الشبيه», ومن أبرز الأمثلة عنه، ما يقوم به كثير من الناس من محاولة الحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء صورهم أو تدميرها.